الفصل التاسع عشر

تعريف العشيرة ومعنى سؤال المودة في القربى

أقرب شيء بعد هذا كله في القرآن الكريم إلى معاني أهل البيت هو ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. (الشعراء ٢١٣-٢١٥)

جاء في صحيح مسلم: "لما أنزلت هذه الآية ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشاً فاجتمعوا، وخص فقال: يا بني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني مرة ابن كعب أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار. يا بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار. يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة أنقذي نفسك من النار، فإني لا أملك لكم من الله شيئا، غير أن لكم رحما سأبلها ببلائها".

وفي رواية أخرى في صحيح مسلم: قال رسول الله ﷺ حين أنزل عليه ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾: يا معشر قريش اشتروا أنفسكم من الله، لا أغني عنكم من الله شيئا، يا بني عبد المطلب: لا أغني عنكم من الله شيئا، يا صفية عمة رسول الله ﷺ: لا أغني عنك من الله شيئا، يا فاطمة بنت رسول الله سليني بما شئت لا أغني عنك من الله شيئا".

وهناك رواية ثالثة أخرى مهمة أوردها مسلم ورواها سعيد بن جبير عن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - وفيها أنه لما نزلت هذه الآية "خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا فهتف يا صباحاه. فقالوا من هذا الذي يهتف؟ قالوا: محمد. فاجتمعوا إليه. فقال: يا بني فلان، يا بني فلان، يا بني فلان، يا بني عبد مناف، يا بني عبد المطلب، فاجتمعوا إليه. فقال: أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقي؟ قالوا: ما جربنا عليك كذبًا. قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. فقال أبو لهب: تبا لك! أما جمعتنا إلا لهذا، ثم قام، فنزلت هذه السورة: تبت يدا أبي لهب وتب".

في تفسير هذه الآية من الأحاديث الصحيحة للنبي ﷺ يتبين لكل عامل باحث عن الحقيقة الموقع الصحيح للقرابة من النبي ﷺ في التصور الإسلامي، كل مطالب بأن يشتري نفسه من النار، أي بأن يؤمن بالله ورسوله وملائكته وكتبه ورسله ويستعد لليوم الآخر، يوم الفرز بين أهل الجنة وأهل النار، وأن يؤدي الفرائض ويجتنب المحرمات، ويتقرب إلى الله بالطاعات، ويتصدق ويحسن إلى الناس ويعاملهم بمكارم الأخلاق، وقد قالها الرسول ﷺ صريحة لأقرب الناس إليه، بمن في

ذلك عمته صفية وابنته وقرة عينه فاطمة رضي الله عنهما: لا أغني عنكما من الله شيئا.

أليس مثيراً للانتباه أيضا أن الذي رد بإنكار وجفاء على النبي ﷺ هو عمه أبو لهب؟ فهل أغنت عنه قرابته من رسول الله ﷺ شيئاً؟ أو لم يخلد اسمه في التاريخ، محفوظاً في كتاب الله، كرمز للعصاة الضالين؟

معنى المودة في القربي

وبقي الآن موضع آخر في سورة الشورى فيه إشارة بوجه من الوجوه لأهل قرابة رسول الله ﷺ:

﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَٰتِ ٱلْجَنَّٰتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾. (الشورى: ٢٢-٢٣)

الفرق بين ما ينتظر الظالمين من شقاء مؤكد، وما ينتظر المؤمنين الذين عملوا الصالحات من نعيم مؤكد، فرق كبير جداً وعظيم، والنبي ﷺ مكلف ببيان هذا الفرق للناس أجمعين، ولكنه يبدأ دعوته بين أهله في مكة لحكمة أرادها الله عز وجل، إنه يؤدي دوره الذي كلف به لا يريد من أحد جزاء ولا شكوراً، فإن أراد قومه أن يردوا له جميلاً،

بمبادرة من عندهم، فإنه عندئذ لا يطلب إلا المودة في القربى. أي أن يستحضروا ويتذكروا ما له من صلة ونسب بقبائل قريش كلها وبطونها تقريبا، وهذه في أعراف العرب توجب قدراً من الاحترام والمودة وحسن المعاملة، ولا تنسجم مع ما لقيه الرسول ﷺ وأصحابه من أذى وعنت وسوء معاملة من قريش وزعمائها.

هناك من فسر الآية بأنها تعني مودة قرابة النبي ﷺ بالمعنى العائلي الأضيق، وهذا جائز، لكن التفسير الأرجح هو ما سبق ذكره، وهو ما مال إليه عبد الله بن عباس رضي الله عنه وعن أبيه، وهو ابن عم رسول الله ﷺ.

هكذا إذن يتبين مما ذكرته في هذا الفصل والفصول السابقة أن القرآن الكريم لم يتحدث عن أهل بيت النبي ﷺ بشكل محدد ومباشر إلا مرة واحدة في سورة الأحزاب، وثلاث مرات أخر بشكل غير محدد وغير مباشر، وقد تبين السياق الذي وردت فيه هذه الآيات والمعاني التي أحالت إليها، وكلها منسجمة مع أسس الإسلام عقيدة وشريعة في موضوع الأنساب والتفاضل بين الناس.

قول الإسلام في هذا الأمر حاسم وقاطع: "إن أكرمكم عند الله أتقاكم". وصدق الله ورسوله.

توضيح ختامي بشأن تعريف أهل البيت

بعد أن عرضت أدلتي في تعريف أهل البيت من القرآن الكريم

وصحيح السنة النبوية، أقول مجددا ما أضيفه لكل رأي أعرضه في هذا الكتاب: ذلك مبلغي من العلم، وثمرة اجتهادي، والله تعالى أعلم.

ثم أضيف ما يلي:

لنفترض أن أقوال علماء الشيعة هي الأصح، وأن أهل بيت النبي ﷺ هم فاطمة وعلي والحسن والحسين رضي الله عنهم جميعا فقط،

أو هم ومعهم ذرية سيدنا الحسين، رضي الله عنهم،

أو هم ومعهم ذرية سيدنا الحسن وسيدنا الحسين رضي الله عنهم كما يقول الزيدية بذلك.

لنفترض أن هذا هو القول الصحيح، فهل ينبني على ذلك أن الإسلام جعل الإمامة خاصة بسيدنا علي، ثم بسيدنا الحسن، ثم بسيدنا الحسين، ثم بتسعة من ذريته، رضي الله عنهم؟

الآية ٣٣ من سورة الأحزاب لا يمكن الاعتماد عليها لتبرير هذا القول، ولا توجد آية أخرى في القرآن الكريم تقول به.

وهل يوجد في كتاب الله عز وجل ما يقول بالغيبة الصغرى أو الكبرى للإمام الثاني عشر؟

الجواب هو بالنفي القاطع. وإذا احتج عالم شيعي بنومة أهل الكهف فإنه يقال له: تلك قصة تخص أهل الكهف، وما نريده هو الدليل الواضح في أمر الإمام الثاني عشر الغائب منذ سنة ٣٢٩ هجرية، ٩٤١

ميلادية، وهذا غير موجود بالتأكيد في كتاب الله، وغير موجود كذلك في صحيح السنة النبوية الشريفة.

وكل ما قيل عن أهل البيت في القرآن الكريم لا ينفي ما جاء في الآية التاسعة والخمسين من سورة النساء التي تثبت أن الحكام هم من عامة المسلمين، يجوز أن يحدث التنازع بينهم وبين المحكومين، وأن المرجع عند الخلاف هو قول الله تعالى ورسوله ﷺ وليس قول أي إمام معصوم.

ولو كان الأمر واضحا في كتاب الله وسنة النبي ﷺ - كما يقول علماء الشيعة - لاتضح أولا للإمام علي الذي قال بشورى المهاجرين والأنصار، ولاتضح لحفيده زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي رضي الله عنهم الذي قاتل الأمويين وأخوه محمد الباقر حي يرزق، وهو عند الشيعة الإثني عشرية الإمام المعصوم إمام زمانه.

واضح إذن، أننا حتى لو قبلنا فرضا ما يقول به الشيعة من إخراج أمهات المؤمنين زوجات النبي ﷺ من أهل بيته، فإن ذلك لن يخدم التشيع كثيرا؛ لأن الأمور التي يتبنونها ويقولون إنها من صميم الإسلام ليست موجودة في القرآن الكريم والسنة النبوية وتراث الإمام علي رضي الله عنه.

ونواصل النقاش في الفصل الآتي إن شاء الله تعالى.